

المجلد: 09 / العدد: 01 جوان (2025)، ص.ص 357-365.

موقع العقد الفريد من كتب الأخبار، قراءة في العقل السردى

The unique place of "Al-Uqūd al-Farīd" among historical narratives. A study of the narrative mind

مريم محمد حكيم

maryamhakamy2023@gmail.com

جامعة جازان

المملكة العربية السعودية

تاريخ النشر: 2025/06/02

تاريخ القبول: 2025/05/17

تاريخ الاستلام: 2024/12/29

ملخص:

قدّم التراث الأدبي العديد من الكتب في الأخبار التي احتوت أشكالا سردية متنوعة من حيث بنيتها وفنيها، في الطرائف والنوادر، والأمثال والتواريخ المهمة، وقد كانت هذه الأخبار في مجالات أدبية، وتاريخية، واجتماعية، ودينية، ولغوية، ورويت بعضها عن العرب، وأخرى ترجمت عن الفارسية والهندية واليونانية على اللسان العربي، فكانت ناقلة للخبر مع ثقافته، إلى جانب وجود القرآن والحديث وآداب التوراة والإنجيل، وإن كانت بعض الأخبار تحتاج إلى السند في الرواية فإنها ليست ملزمة بالإصحاح والفكاهة، مثل جنس النوادر والطرف؛ التي قد تطوى داخلها.

كلمات مفتاحية: السرد، الحدث، الخبر، العقل النقدي، الضحك

Abstract:

Literary heritage has provided numerous books of news that encompass diverse narrative forms in terms of structure and technique, such as anecdotes, witty stories, proverbs, and significant historical accounts. These news items have covered literary, historical, social, religious, and linguistic domains. Some were narrated about the Arabs, while others were translated from Persian, Indian, and Greek into Arabic, thus conveying news along with its associated culture. Alongside the Quran, Hadith, and the literature of the Torah and the Gospel, these narratives existed. Although some news may require a reliable source in the narration, not all of them are bound by the need to be humorous or witty, unlike the genre of anecdotes that often incorporate these elements

Keywords: narrative, critical thinking, laughter, report.

تمهيد: في تأسيس جنس الخبر

لقد تأسس جنس الخبر عبر المشافهة قبل أن ينتقل إلى مرحلة التدوين؛ فقد اعتمد نشوء تلك المدونات والمصادر على "عملية الجمع التي قام بها جماعة من الأدباء العرب كأبي عمرو بن العلاء والأصمعي وغيرهم، من الذين كانوا يجمعون ما يتلقونه من العرب في البوادي والحوضر، وابن المقفع وأمثاله كانوا يجمعون ما وصل إليهم من أدب فارسي وهندي يصوغونه صوغاً عربياً يُحاذون به النتاج العربي"⁽¹⁾، فهذا الجمع لم يتم بطريقة اعتباطية أو فوضوية، وإنما بنظام منهجي في التدوين والترتيب، حسب الموضوعات والأفكار والأعوام، كما أن فعل ترجمة الأخبار غير العربية قد تم بمراعاة ثقافة النص الأصلي، خصوصاً الجاحظ الذي تعامل مع الأخبار تعاملًا معرفيًا وجاليًا في الوقت نفسه، فهو يعتمد

داخل القص بزُوح معرفية وعظيمة، وفي هذا الشأن يقول بعض الباحثين: إن أصول القص عند الجاحظ كانت مستمدةً من مفهوم الخبر الذي يرتد بدوره إلى علم الحديث، ومن هنا شغل بالبحث عن مصداقية القص وفاعليته الوظيفية⁽²⁾، فالأخبار تُطرح دائماً قضية المصداقية عبر أسانيدِها العديدة المتواترة.

إنَّ البناء المنهجي الذي تمَّ من خلاله جمع الأخبار التي جاءت متعددة الأشكال - كالمُلح والنوادر، والحكم والطُرف، والفكاهات والحُطَب - قد تأسَّس بناؤها المنهجي على أساس الاختيار⁽³⁾.

إنَّ آلية الاختيار هي أهمُّ مرحلة في إطار إعداد الكتب المختارة، فهي تحتاج إلى معرفة أدبية تاريخية وذوق فني، ولهذا السبب يُعدُّ أندري لوفيفر مؤلفي المختارات ضمنَ فئة من الكتَّاب المجتهدين والمتدقيقين للأدب، ويصفهم بالفئة الوسطى من الكتَّاب؛ أي: تلك الفئة التي تسعى إلى الربط بين المؤلف الأصلي للنص والقارئ، وأهمية هذه الفئة من الكتَّاب تكمن في كونها قادرة على أن تقرّر قبول الأعمال الأدبية أو رفضها، وهي التي تتصدى لمهمة إيصال هذه الأعمال للقارئ العادي على النحو الذي تراه مناسباً⁽⁴⁾.

ولهذا كانت المختارات من النوادر والطُرف آلية لنقلها من مؤلفها الأصلي إلى مؤلف آخر ذواق للنصوص، قادر على إتقان فعل الاختيار الذي يؤهله؛ كي يكون همزة وصلٍ للنص الأصلي للقارئ الجديد المتطلع إلى قراءة عدة نصوص مختلفة في كتاب أدبي واحد.

ولهذا السبب الفني جاءت المختارات لتعبّر عن ضرورة ذوقية وفضولية لدى نوع من القراء الكُسالى، والمحين للتعدد والتنوع، الذين يتقنون في قراءات الآخرين؛ إضافة إلى وجود عدة عوامل هيأت لزواج ظاهرة الاختيار في المدونات الأدبية؛ نذكر منها⁽⁵⁾:

1. حاجة الأدباء إلى المال، وارتباط الأدب بمجالس الخلفاء والأمراء؛ مما جعلهم يرتادون تلك المجالس، فيقضون جلَّ وقتهم لتخير أحسن ما يروى فيها، ولعل شغف الأدباء بميول الملوك الأدبية، جعلهم يبتكرون هذه المختارات في اللحظة نفسها، حين يتمُّ لقاء النصوص على مسامع الملوك والخلفاء الذين يتهبجون ببعضها، ويزعجون من أخرى.
2. تربية الأدباء لأبناء الخلفاء جعلتهم يتخيرون لهم أفضل النصوص التي تبعث في نفوسهم حبَّ الأخلاق الفاضلة وطلب العلم، وتعلم اللغة السليمة، فالاختيار جزءٌ من عملية التعليم، وبعده تبقى النصوص المختارة معروفة ومشهورة، فيسعى الأدباء إلى طبعها ونشرها في كتب مختارة.
3. يلجأ الشاعر إلى تخير الأبيات الشعرية والنصوص التي تُعجبه؛ كي يستطيع محاكاة معانيها، مثلاً فعل أبو تمام في ديوان الحماسة.

هذه العوامل - التي أسَّست لآلية الاختيار حسب كتاب العقد الفريد - مرتبطة بغرض مادي وغرض تعليمي، وغرض فني جمالي، ولكن الغرض الاجتماعي غاب غيابةً نسبياً مع أهميته، ففي كثير من الأحيان النوق الاجتماعي هو الذي يختار النصوص، ويُعلي من مكانتها، والاختيار في أساسه فعلٌ تأويلي للنصوص قبل أن يكون مجرد اختيارٍ عابر، فالتأويل "والقراءة دائماً بحثٌ للعثور على كنز"⁽⁶⁾، ومن يُتقن تأويل النصوص يُتقن اختيار أفضلها وأجملها، فلا ينفصل الاختيار بوصفه آلية تصنيفية عن التأويل بوصفه آلية فهمية وذوقية.

لهذا السبب لم تكن عملية الاختيار في تراثنا الأدبي ناضجةً دفعة واحدة، وإنما حصل شيءٌ من التطور في الكتابة السردية التي اعتمدت على انتقاء مجموعة من الأخبار، واستطرادٍ لا ضابط له، ومسائل اجتمعت في موضع لا يجب أن تجتمع فيه، كما هو ملاحظ في كتاب البيان والتبيين والكمال للمبرد⁽⁷⁾، على الرغم من أن هذا الحكم على كتابي البيان والتبيين والكمال، يبدو متسرعاً، خصوصاً إذا نظرنا إلى هذين الكتابين من منظور محمد مفتاح الذي يرى هذه الكتب التي تجمع أخباراً متنوعة ومختلفة، تسعى إلى الكشف عن البنيات العميقة المشتركة بين أناس يتوطنون في مجال معين؛ مما جعلهم يتفاعلون ويتفاهمون، ويتبادلون المصالح والمنافع، وهذا واردٌ في كتاباتهم التي يحكمها سلطان العقل⁽⁸⁾ فالاختيار يكون عبر آلية التفكير العقلاني أكثر منه آلية التفكير الأدبي التخيلي.

إن تسانُد آليات التفكير العقلاني مع آليات التفكير الأدبي التخيلي، يحدث على مستوى الترتيب والتبويب بدرجات متفاوتة بين الجاحظ وابن قتيبة وابن عبدبره، فمثلاً يرتقي ابن قتيبة في آليات الترتيب واختيار نصوصه، فيجمع المتشابهة منها تحت عنوان واحد في كتابه عيون الأخبار، وقد ازداد هذا التنظيم والوحدة الموضوعية مع ابن عبدبره في

العقد الفريد⁽⁹⁾، فكان النظام مستترًا مع الجاحظ، ثم انتصف استنائه مع ابن قتيبة، ثم انبجس هذا العقل النظامي بكل وضوح مع العقد الفريد، لهذا يجب المرور على هذا الخط الثلاثي لفهم موقع كتاب العقد الفريد من كتب الأخبار.

1- العقل/ النظام المستتر في البيان والتبيين للجاحظ⁽¹⁰⁾هـ:

إنَّ النزعة البلاغية التي حكمت الكتابة الإخبارية لدى الجاحظ، مرَّدها إلى إيمانه بوجود نظام خفي ومستتر يتحكم في كل الموضوعات والظواهر الكونية، فحسبه "كلُّ شيء يشبه كلَّ شيء"⁽¹¹⁾ فالعقل هو القادر على اكتشاف أوجه التشابه داخل فضاءات الاختلاف في البلاغة والفصاحة، وغيوب الفهم والتأويل والإيضاح، وخطب العرب في الجاهلية وغيرها.

إن هذا التنوع في المواضيع والأفكار منطقي؛ حيث نجد الكتاب ينقسم إلى قسمين، قسم نظري يتناول فيه قضية البيان، فعرف فيه البلاغة والفصاحة، وغيوب القول الفصح، وبلاغة الصمت، وناقش أيضًا الصفات التي يجب أن تتوفر في الخطيب الجيد، في حين جاء الشق الثاني التطبيقي ليتضمن خطب العرب ابتداءً من العصر الجاهلي وصدر الإسلام، وانتهاءً بالعصر الذي عاش فيه الجاحظ، وهو العصر العباسي.

وقد جاءت الأخبار السردية في الكتاب متنوعةً ومختلفة في زمن قولها وغرضها ومحتواها، وهذا التعدد والتنوع في فكر الجاحظ راجع إلى إيمانه بالنظام المستتر الذي يحكم الكون وأشكال الوجود، وأنظمة التواصل، ف"بعض المفاهيم وُظِّت في مجالات علمية متعددة، وأدَّت إلى نتائج متطابقة في الوصف، في الاستكشاف، وفي التأويل وفي التغيير، وبعض هذه المفاهيم هي النواة الصُّلبة والحالات الأولى، ومركز الجذب وثبوت المقياس، والمورث، وهي محمَّا اختلفت أساؤها، فإنها تجتمع في مبدأ (لا شيء يحصل من غير شيء)، وتعكس مبدأي (كل شيء ينسجم مع شيء آخر)، و(كل شيء يتصل بشيء آخر)"⁽¹²⁾، والجاحظ يُدرك هذه المفاهيم في عملية كتابة البيان والتبيين الذي جاء بعد خبرة طويلة في الكتابة (بعد كتابي الحيوان والبخلاء)، فتبين له أن الوضوح التام في السق الاختياري الذي يحكم عملية الكتابة قد ينقص من جاليتها؛ لأن المتلقي حين يجد القضايا والأفكار والنصوص مرتبةً بانتظام، فإنه سيتكاسل في القراءة، ويستغني عن التأويل العقلاي، وهذا ما يميز منهجية الجاحظ ذي الخلفية العقلانية الاعتزالية التي تؤمن بمفاهيم السببية والانسجام والاتصال.

من هذه المنطلقات المعرفية فإنَّ الجاحظ قد اتَّبع إخفاء النسق المنهجي، أو إخفاء العقل الجامع، فيلاحظ القارئ أنه يُرسل نفسه على سجيَّها، متقيِّدا بنظام مُحكم، يلتزم فيه منهجًا مستقيمًا، يدل على عبقريته، ولهذا السبب تراه يذكُر في الكلام قضية من القضايا، ثم يدعُها في أثناء ذلك؛ ليدخل في قضية أخرى، ثم يعود لما أسلف من قبل⁽¹³⁾، فعملية التأليف لدى الجاحظ تحتاج إلى قارئ حصيف فطن قادر على القيام بعمليات الربط العديدة، والتأويل المركب والمتعدد لإشارات الفقرات المترابطة، لإيمانه التام بأن القارئ يجب أن يشارك في عمليات الكتابة والتأويل، حتى يكتمل نسيج النص، فيكتشف القارئ النظام والعقل المستتر الذي يحكم كتاب البيان والتبيين، فهدف الجاحظ من الكتاب لم يكن تقديم الأخبار والنوادر والمعرفة تقديمًا واضحًا، وإنما هدفه هو الوصول إلى القارئ الذكي القادر على الربط بين المتباعدات والمختلفات، "فهذه التصنيفات والتسميات فيما نعتقد آليات تأويلية رغم عفويتها الظاهرة، وغياب شبه كلي لتبريرات مقنعة"⁽¹⁴⁾ بالإضافة إلى تبرير آخر هو أن الجاحظ يريد أن يجعل القارئ متجولاً بين فصول الكتاب والكتب الأخرى التي يُحيل إليها كثيرًا، وسنقدّم مثالا فيما يأتي.

إن استحضار الجاحظ للقارئ الحصيف المتجول، هو ما جعله يعتمد على مفاهيم الإحالة النصية، ولهذا قام بتقسيم الكتاب ثلاثة أجزاء، فيبحث في الموضوعات ذاتها في كل جزء، وكلُّ جزء ينقسم إلى عدة أبواب، وكل باب يحوي موضوعًا واحدًا بشواهد، ثم يتطرَّق إلى ذات الموضوع في باب آخر⁽¹⁵⁾، فيحيل المتلقي إلى قراءة باب آخر، ثم العودة إلى قراءة الباب الذي كان فيه، فمثلا نجد أنَّ مفهوم البيان بوصفه علمًا قد تورَّع على ثلاثة أجزاء، ففي الجزء الأول تحدث عن مفهوم البيان وأنواعه، وآفات اللسان والبلاغة والفصاحة، ثم جاء الفصل الثاني ليتحدث فيه عن الخطابة وطبقات الشعراء، وكان يُحيل فيه إلى الجزأين الأول والثاني، بالإضافة إلى الإحالات النصية الداخلية، فإن المشترك بين الأجزاء الثلاثة للكتاب هي المنتخبات من كلام الأنبياء والخطب والمقطعات، والأحاديث والرسائل، والأشعار التي نسبها إلى مختلف طبقات الناس: عقلاء وحقي، نساك ومتهتكين، وغيرهم من طبقات المجتمع وهذا التنوع في الاستدلالات، راجع إلى إيمان الجاحظ بأهمية الأخبار وقدرتها على تبين الفكرة، فالخبرُ يتأسس على "جملة خبرات

تشکیل ذاكرة معرفية بالنسبة لنوعه، وهذه الذاكرة التي تُسَعفه في المجال المعرفي الذي يضمن الاستقرار لشروطه المعيشية، فنحن محتاجون إلى مَنْ سبقنا كنحو احتياج مَنْ يَلينا أو يأتي بعدنا⁽¹⁶⁾ إلينا.

فللخبر قيمة معرفية لدى الجاحظ، إضافة إلى قيمته الاستدلالية، وهذا عكس ما يرى حمادي صمود حين يذهب إلى أن السمة الغالبة على كتابات الجاحظ في البيان والتبيين هي الاستطراد وقلة الإحكام، بسبب عدم وجود منهج واضح يحكم كتابه، بسبب سعة ثقافته وإحاطته بفنون القول والمعرفة في عصره⁽¹⁷⁾؛ ولهذا فإن المعرفة المركبة التي اكتسبها الجاحظ من قراءاته لأخبار العرب، لا يقدّمها بشكلٍ نسقي واضح، وإنما يُجَرِّصُ القارئ ويدفعه إلى إقامة العلاقات بين الأخبار والمفاهيم البيانية والبلاغية والفلسفية، فتوظيفه للخبر جاء خدمةً لنظرية البيان التي يدافع عنها، فيطرح مسألة معرفية، ويستتبّعها بأخبار ومقتطفات شعرية تُخدّم تلك المسألة المعرفية، ثم يُعقّب عليها بتحليله؛ وبذلك يتضح لنا أن مختارات الجاحظ في كتابه تُخدّم نظرية البيان، فجاء الخبر آليةً وسندًا استدلاليًا معرفيًا وجماليًا في الوقت نفسه.

إن الخبر بوصفه آليةً وسندًا استدلاليًا، يجعل النص ذا بُعدٍ جمالي وقيمة معرفية أعمق، فمثلًا في حديثه عن جمهرة الصوت يقول: "كانوا يمدحون الجهر الصوت ويمدون الضئيل الصوت، ولذلك تشادقوا في الكلام، ومدحوا سعة الفم وذموا صغر الفم"⁽¹⁸⁾ وهذا الشرح لأهمية جمهرة الصوت في العملية الإبلابية التواصلية، سيُتبّعُ الجاحظُ بدليل من الأخبار السردية، فيقول: "قال: وحَدَّثني ابن يسير الشاعر قال: قيل لأعرابي: ما الجمال؟ قال: طولُ القائمة، وضخْمُ الهامة، ورُحْبُ الشِّدْق، وبُعْدُ الصوت"⁽¹⁹⁾؛ إن هذا الخبر استدلالٌ ثقافي على صحة طرحه البياني في قضية الصوت الجهوري، وقدرته على إثباته القصد وإبلاغ الرأي، فالجاحظ "يتصوّر العالم تصوّرًا بيانيًا؛ أي: إنه يرى أن الكون والطبيعة والحيوان والإنسان، تعبّر عن نفسها بأشكالٍ إشارية مختلفة"⁽²⁰⁾ وجمهرة الصوت آليةٌ لتحقيق البيان، فاستقدم خبرًا سرديًا من الذاكرة الثقافية لتأكيد طرحه.

لا يتوقّف استدلالُ الجاحظ على طُرُوحاته البيانية باستعمال خبرٍ سردي واحد، وإنما باستعمال عدة أخبارٍ تتصل بالخبر الأول، فالسؤال عن ماهية الجمال لا يتوقف عن الخبر السابق، وإنما يأتي ليُحيل إلى معارفٍ أخرى، ويظهر ذلك في قوله: "قال: وقلت: ما الجمال؟ قال: عَوْرُ العينين، وإِشْرَافُ الحاجبين، ورُحْبُ الشِّدْقَيْن (فبعد الصوت) في الخبر السابق، (ورُحْبُ الشِّدْقَيْن) هي أدلة الجاحظ، ولكنَّ بَقِيَّةَ الجُمْل في الملفوظات الخبرية لا تميل فقط إلى مفهوم البيان وأهمية الصوت الجهر لتحقيقه، وإنما تميل كذلك إلى مفهوم الجمال الجسدي بصفة خاصة، من قبيل إشراف الحاجبين وغلوهم، والعين الغائرة وطول القائمة... إلخ.

إن الاستدلال المعرفي بالخبر السردية لدى الجاحظ، لا يتم في الموضع النصي نفسه، بل قد يُحيل إلى أجزاءٍ أخرى من كتاب البيان والتبيين، كما ذكرنا ذلك سلفًا في الإحالات النصية والإشارات الداخلية، ولكن الجاحظ قد يشير إلى نصوص أخرى كتبها في (الحيوان) أو في (البخلاء)، كقوله: "قالوا: نظرنا على مقادِم أفواه الغنم، ففكرنا أن نُشَبِّه مقادِم أفواهنا مقادِم أفواه الغنم، فكم تظُنُّهم - أكرمك الله - فقدوا من المنافع العظام بفقد تلك الثنايا، وفي هذا كلامٌ يقع في كتاب الحيوان"⁽²¹⁾؛ فالمعلومة التي تخص علاقة الأسنان وسقوطها، يتحقق البيان بها مشروحةً في هذا السياق، وكذلك في سياق كتاب الحيوان الذي يشرح مقادِم الحيوانات وأوصافها.

إن النظام المستتر الذي اشتغل وفقه الجاحظ في التعامل مع المعرفة البلاغية والأخبار السردية، يجعله يُطالب بقارئٍ موسوعي غير كسولٍ، قارئٍ قادرٍ على تأويل الكلام وإدراك النظام المستتر؛ لأن الكلام عند الجاحظ شاملٌ ومشمولٌ، متضمّنٌ ومتضمَّنٌ، فمن يتفحص خطابًا يأمل أو يَحْتَسِب أن يصادفَ في ثناياه خطابًا آخر⁽²²⁾؛ ولهذا كان التعدّد والتنوع المكاني في استعمال الخبر لدى الجاحظ ميزةً في كتابته.

2- العقل المنهجي في عيون الأخبار لابن قتيبة (23) 267هـ:

لعل أهمّ سمة يَدْرِكها قارئ عيون الأخبار هي سمة العقل المنهجي لابن قتيبة، فهو القادر على الدمج بين المتعة في سرد الأخبار بالمعرفة التحقيقية للقارئ، فكان مدرّكًا للتفاصيل، يسرّها بإتقانٍ منهجي، ولهذا نَعُدّه في مجال السرد القديم كنزًا لشتى أنواع المعرفة، فقد جمع فيه ثقافات وأحداث متنوعة، ليصبح هذا الكتاب موسوعة معرفية ذات طابع

فني سردي مُمتع، "فنقل تفاصيل حية وذات أهمية؛ إذ نرى الشاعر يحيا حياته الخاصة، ونقف على علاقاته برفاقه كما نراه عند ممدوحيه أو داخل حلقات الأدب التي عرّفها عصره"⁽²⁴⁾.

فالحبر يحكي تفاصيل الشعراء وطرائفهم، وأخبار قصائدهم وعلاقاتهم، وكذلك أخبار الملوك وسائر طبقات المجتمع المختلفة؛ ولهذا شبه ابن قتيبة كتابه عيون الأخبار قائلاً: "مثلُ هذا الكتاب مثلُ المائدة تختلف فيها مذاقات الطعوم لاختلاف شهوات الأكلين"⁽²⁵⁾، ولهذا فإن الناقد أجد الطرابلسي بوصفه ناقدًا للشعر، رأى في أخبار الشعراء وأشعارهم داخل الكتاب طبقاً معرفياً شهياً للتدريس والطرح، ومن ثم اعتمده مصدرًا أساسيًا في كتابه نقد الشعر عند العرب، فالحبر يحمل قيمة نقدية قد توازي التحليلات التطبيقية.

ويُعد ابن قتيبة بعقله المنهجي قادرًا على دمج المتعة بالمعرفة، لمراعاته أذواق القراء وشغفهم المعرفي؛ لهذا تناول في كتابه الحديث والأدب ورواية الشعر، وذكر السلف الصالح وأخبارهم، كما عرض في كتابه جانب السياسة والحروب، ولم يُغفل النوادر والملح والفكاهات، وغيرها من الموضوعات التي جعلت الكتاب مصدرًا غنيًا بالعلوم، وتعدّد المعارف التي كانت تُعرض في أبواب (كتب) مستقلة بترتيب منهجي واضح المعالم، فبدأ بكتاب السلطان الذي طرح فيه محلّ السلطان وسياسته التي يجب أن يتبعها مع رعيته، وكيفية اختيار العمّال الذين يديرون أحوال القصر، ثم يطرح في (باب صحة السلطان) الأدب التي يجب أن يتعامل بها صاحب السلطان معه، وخاض أيضًا في مشاوره الرأي واتباع الهوى والسر وكتابه، وحالات من خيانات العمّال والقضاء، وآداب الخطاب مع السلطان، وقد جاءت جميع هذه القضايا مترابطة ترابطًا منطقيًا ومضمونيًا.

ثم جاء كتاب الحرب بعد كتاب السلطان؛ ليُطرح فيه آداب الحرب ومكائدها، وكل ما يتعلق بها من أسلحة وُعْدَة وعناد، فكان الترابط واضحًا بين البابين، فالسلطان هو من يقرّر الحرب، ثم ذكر ابن قتيبة في هذا الكتاب أوقات الحرب والأدعية التي تقال حين تلتقي الجيوش، والصبر على الحرب، وذكر خططها ومكائدها، وآداب الفروسية، وما يصحب الحرب من مواضيع كالطير والفأل بالفوز، والحيل والجمال والبغال والحمر التي تُستعمل وسائلًا للتنقل، كما أنه لم يُغفل الجبناء وأخبارهم، فهم طرائف الحروب، وفي هذا الترابط تميز العقل المنهجي لدى ابن قتيبة في قدرته على التنقل بين السياقات النصية المختلفة⁽²⁶⁾، محافطًا على ترابط الأخبار وانسجامها المنطقي من أخبار السلاطين إلى حروبهم وإستراتيجياتهم اليومية، ولهذا سعى ابن قتيبة إلى "تطوير جهازه المفهومي لتقديم الممارسات اليومية في أكمل صورة منهجية ممكنة"⁽²⁷⁾.

هذا التماسك في تبويب عيون الأخبار نتيجة تفكير منهجي اكتسبه من قراءات لكتب الأوائل كالجاحظ، فاستطاع أن يركّز على ما كان مستترًا لدى الجاحظ، فاستفاد من أخبار القدماء وأحداثه ويوميته التي عاشها؛ كي يَضبط مفاهيمه ونصوصه التي يُكمل بعضها بعضًا، فقد يورد ابن قتيبة نصين مختلفين، فيورد نصًا ثالثًا جامعًا بينهما. ثم جاء بكتاب السؤدد بعد كتابي الحرب والسلطان، فإن السلطان مجرّبه تحقّق سؤدده، وقد عالج في هذا الكتاب مخايل السؤدد وأسبابه، وعلاقة السؤدد بالسلطة والمال، وباب في التكبر، ثم في التواضع وفي العقل، وفي الطبائع والأخلاق المذمومة، وبعد أن عالج في هذه الكتب الثلاثة موضوعات مترابطة، ذهب في الكتاب الرابع إلى ما يتعلق (بالعلم والبيان)، وتناول فيه مصادر العلم؛ كالقرآن والحديث والكتب القديمة، كما تحدث عن البيان والبلاغة والخطب والمقامات، ووصف الشعر ولغة الخطابة.

ثم جاء (كتاب الزهد) موضوعًا مركزيًا في عيون الأخبار، وقد تحدث فيه عن أخبار الزهاد ودعائهم وبكائهم وتهجدهم، ومقامات هؤلاء الزهاد، وصفاتهم التي تُميزهم عن غيرهم، وعقب هذا الكتاب (كتاب الإخوان) والأصدقاء، وحُسن اختيارهم، ليُطرح أفكار المحبة، وما يجب للصدق من صديقه من مودة وصديق، كما فتطرق للهدايا التي تكون بين الأصدقاء وكيفية التعازي والتباني، وغير ذلك من الممارسات الحياتية التي تصبح مثل النصوص الأدبية⁽²⁸⁾، وابن قتيبة يربط بين النص الإخباري والحياة.

يستمر هذا الربط المنهجي حين ينتقل ابن قتيبة إلى (كتاب الحوائج)، وكيف يتم قضاءها عبر الهدايا والرشاوي، والاستنجاد بلطيف الكلام، وكيف نسأل المسؤول ونطلب منه حاجة ما، فتطرق إلى آليات التزغيب والاستعطاف والإلحاح، ويليهِ (كتاب الطعام) الذي يسرد فيه أخبارًا في الأطعمة الطيبة، وما يأكله الفقراء الأعراب، وما يأكله

الأغنياء، وباب الضيافة، وأنواع الأغذية والخضر والفواكه، وأخيراً يختتم ابن قتيبة كتابه عيون الأخبار بكتاب عن النساء، فتطرق إلى اختلاف أخلاقهن وخلقهن، وما يُختار منهن للنكاح والعشق⁽²⁹⁾.

لقد قسّم ابن قتيبة كتابه عيون الأخبار إلى عشرة كتب منسجمة ومتراصة موضوعيًا، فكان كل كتاب بمنزلة باب مستقل بذاته، ومترابط منطقياً بغيره، فبدأ بكتاب السلطان وانتهى بالنساء، والعلاقة وطيدة بينهما، وصفة السلطة جامعةً بينهما، وقد اختار ابن قتيبة في تلك الكتب "خير ما روي فرثه وبؤيه، وجمع ما تشابه منه تحت عنوان واحد من كتبه العشرة"⁽³⁰⁾ وكان يربط بين هذه الكتب منهجياً؛ لأنه نهج في ترتيبه نظاماً خاصاً، فهو يسوق الباب ثم يتبعه بما هو قريب إليه مناسب له⁽³¹⁾، وقد خلق هذا الترابط والاستجمام عبر العقل المنهجي المعتمد على الإحالة، فالقارئ يجد نوعين منها: القبليّة والبعدية، فهو يذكر القارئ أحياناً بأن بعض مسائل الكتاب الفلاني سيجد لها أجوبة وحلولاً في الكتاب الذي بعده (إحالة بعدية) وأحياناً يذكر أن هناك مسائل تمّ ذكرها في الكتاب السابق (إحالة قبلية)، والإحالة من الآليات إشغال العقل المنهجي⁽³²⁾ القادر على تنظيم الكتاب.

ولعل هذا العقل المنهجي جعل ابن قتيبة يختلف عن الجاحظ والمبرد، فهو لا يستطرد كثيراً، ولا يتبع الأخبار بشروحات لغوية أو نحوية أو تعليقات، أو أحكام نقدية كثيرة؛ لأنه اعتمد على تدوين الأخبار على "جلسائه وعمن فوقه من السن والمعرفة، كما وقف على كتاب التاج وكتاب الآيين وكتاب إبرويز، وآداب ابن المقفع، وكتب الهند، لكن دون ذكر اسم كتاب اعتمد عليه"⁽³³⁾.

إن قيمة الكتاب تكمن في قدرات العقل المنهجي الذي استطاع أن يجمع الأخبار بطريقة منهجية، فالقارئ يستطيع اختيار الكتاب الذي يقرأ فيه مادة علمية نافعة وأخباراً متعددة المصادر، فيتلقى المعرفة ويحصل عليها، كما يشعر بلذة القراءة ومتعة تلقي كتاب مبوب بطريقة نسقّة مُحكمة.

3- العقل المتشعب في كتاب الكامل للمبرد⁽³⁴⁾ 285هـ

إن المقصود بالعقل المتشعب³⁵ هو ذلك العقل القادر على تشعب المعرفة والتفكير في كل أرجائها وفضاءاتها المختلفة؛ من لغة ونحو وأدب، وتاريخ وأخبار وبلاغة، ومشكلات فكرية ولغوية وعقدية، ولهذا يُعد كتاب الكامل مثلاً لهذا العقل المتشعب والموسوعي الذي لم يُحاصره التخصص الواحد الدقيق، فمع تخصّصه في النحو، فإنه استطاع أن يؤلف كتاباً من أصول كتب الأدب، حسباً ذهب إلى ذلك ابن خلدون في مقدمته الشهيرة.

لقد كان المبرد يهدف من خلال كتابه الموسوعي إلى ما يأتي⁽³⁶⁾:

- تفسير كل ما ورد في الكتاب من كلام غريب.
- توضيح المعاني الغامضة والمستعلقة.
- شرح كل ما يعرض فيه من الإعراب شرحاً شافياً.
- أراد أن يكون الكتاب بنفسه مكتفياً فلا يرجع إلى أي كتاب آخر.
- إن هذه المقصدية توحى إلى القارئ أنّ صاحب الكتاب قارئ موسوعي بالأساس، وقادر على تجميع الأخبار النثرية الأدبية والتاريخية واللغوية بشكل متشعب، بغرض تشويق القارئ وتنشيطه؛ كي ينتقل بين فصول الكتاب وأبوابه التي يبلغ عددها تسعة وخمسين، فللقارئ دورٌ أساسي لدى المبرد، لهذا يسعى دائماً لاستمالة، فللقارئ أيضاً يد في تفسير الكتاب، ومن ثمّ الإسهام في بنائه⁽³⁷⁾.
- فالعقل المتشعب لدى المبرد يستدعي القارئ إلى تفحص وتفسير موضوعات متنوعة ومختلفة المشارب، من أبرزها⁽³⁸⁾:
 - وصف الرسول عليها الصلاة وذكر الصحابة رضوان الله عليهم.
 - تناول المشكلات اللغوية والنحوية في الأخبار التي كان يوردها ثم يقوم بشرحها وبيان غريبها وإيضاح إعرابها.
 - كما أورد عدداً كبيراً من أخبار الخوارج.
 - احتوى الكتاب عدداً من التلميحات في البلاغة.

- يشتمل الكامل على عدد كبير من الأمثال العربية.
- لم يغفل المؤلف الجانب الفكاهي.
- أورد أخباراً للحكماء وأقوالهم.
- ذكر بعض القضايا النقدية كقضية اللفظ والمعنى.

إن منهج الكتاب تشعبي وموسوعي، فقد جعل كتابه على أبواب مختلفة ومتفرقة، بدأها بباب الكلام عن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم - للأنصار "إنكم تكثرُونَ عند الفزع..."، وختم بباب من طريف الشعر الملحون.

إنَّ هذه الزعة التشعبية لنصوص الكتاب وأبوابه، لم تجعل كتاب الكامل مفككاً أو غير مترابط؛ فهو كتاب يشبه تعقيد الحياة وتشعبها، لأنَّ تشعب النص وتفرعه لا يعني بالضرورة ترابط فروعه⁽³⁹⁾ فيمكن أن يكون كتاب/ نص متشعباً ومنسجماً أو متشعباً وغير منسجم.

إنَّ الاستطراد هو آلية ربط النص المتشعب في كتاب الكامل، ففي سرده أخبار الخوارج يستطرد في إيراد أشعارهم وخطبهم وذكر فرقهم وحروبهم وقوادهم في باب مستقل، لكنه لم يتوقف عند هذا الباب بل أتبع ذلك بعدة أبواب تحدث عنهم فيها بحديث طويل.

وحين يطرح القضايا اللغوية نجده يشرحها شرحاً دقيقاً وعميقاً، كما أورد لها استشهادات ودروساً، وكذلك فعل في الأمثال فشرحها وتطرق لذكر المناسبة التي قيل فيها المثل، ثم أتبع ذلك منهجاً ذكياً في إيراد الأخبار الفكاهية حتى لا يمل القارئ، بالإضافة إلى بُعد تلك الأخبار عن الفحش وخدش الحياء، وهذا يدل على اهتمامه بالقارئ الذي يخلق في عوالم التخيل وفضاءاته، كي ينقله إلى واقع آخر مفارق لواقعنا⁽⁴⁰⁾.

لقد استطرد المبرد حيث لم يلتزم بجعل موضوعات الكتاب تندرج تحت موضوع واحد بل تطرق إلى أخبار الحكماء في أول الكتاب ثم في أوسطه ثم في آخره، وهكذا في بقية الموضوعات، فتنسجه للأبواب لم يأت على نسق معين، وإنما جاء متشعباً بخلاف "الكتابة النسقية والتحليل المنطقي المبني على قوة الحجاج والاستدلال والبرهان العقلي والتحليل المتناسك انسجاماً واتساقاً"⁽⁴¹⁾.

هذا العقل المتشعب ظهر كذلك في عرضه للخبر وتوظيفه إياه، عن طريق بدئه بالخبر السردى، ثم يستتبعه بالشرح اللغوي، ثم يستشهد عليه أحياناً، وقد يبدأ بأخبار متتالية، ثم يعقب عليها بشرحه وتعليقه أحياناً أخرى، وهكذا شأنه في كثير من شذراته الشعرية أو النثرية، وهو بذلك جاء مخالفاً لطريقة عرض الجاحظ التي سبق ذكرها، كما أن وظيفة الخبر في كتاب الكامل هي وظيفة علمية ولغوية، جاءت لتتناول المعاني الغامضة، فتوضحها للقارئ، وتشرح له غريب الألفاظ، ولعل هذا المثال خير دليل نستشهد به: "قال أبو العباس: قال يزيد العقيلي، وكان يسرق الإبل ثم تاب وقتل في سبيل الله:

أَلَا قُلْ لَأَرْبَابَ الْخَائِضِ أَهْلُوْا فَقَدْ تَابَ مِمَّا تَعْلَمُونَ يَزِيدُ

وإن امرأً ينجو من النار بعدما تزود من أعمالها لسعيد

وبعد أن يعرض البيتين يأتي على شرحهما، فيقول: (قوله: أَلَا قُلْ لَأَرْبَابَ الْخَائِضِ)، فإن الناقبة إذا لقيت قيل: خلفه، وللجميع الخاض، وهذا جمع على غير واحدة، وإنما هي بمنزلة امرأة ونساء، ثم جمع الجمع، فقال: خائض؛ كقوله في رسالة رسائل، وكما تقول في قوم: فتجمع الاسم الذي هو للجمع، وكذلك أعراب وأعريب، وأنعام وأنعيم⁽⁴²⁾.

تبرهن هذه الطريقة على قوة الجانب اللغوي والنحوي والمعجمي، فالمبرد هنا جاء بالخبر الذي هو بيتان من الشعر، ثم راح يشرح لفظة (الخائض) الواردة في هذا البيت، ويستشهد بأخبار وردت فيها ألفاظ مشابهة للفظ (الخائض) التي قصد من خلالها أن يتطرق إلى جمع التكسير، والخبر هنا أدنى وظيفة علمية لغوية، وكذا في سائر أخباره ومختاراته التي ينطلق فيها من شذرة شعرية ليتوسع فيها تحليلاً وتفصيلاً، لهذا يعدُّ الكتاب مصدراً مهمّاً في دراسة التراث الأدبي، سواء فيما يتصل بالشعر الجاهلي والإسلامي، أم فيما يتعلق بالحكم والأمثال والأخبار وال نوادر المتنوعة.

الإحالات:

- (1) ط: شاهین، محمد عبد القادر، العقد الفريد، مقدمة المحقق، ص6.
- (2) الروي، إلفت كمال، الموقف من القص في تراثنا النقدي، مركز البحوث العربية للدراسات والنشر والتوثيق، القاهرة، 1991، ص32.
- (3) ط: العقد الفريد، ص6.
- (4) ط: لوفيفر، أندريه، الترجمة وإعادة الكتابة والتحكم في السمعة الأدبية، ترجمة وتقديم فلاح رحيم، ط1، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2011، ص80.70.
- (5) العقد الفريد، ص6.
- (6) الغاني، سعيد، الكنز والتأويل، قراءات في الحكايات العربية، ط1، المركز الثقافي، الدار البيضاء، 1994، ص5.
- (7) العقد الفريد، ص7.
- (8) مفتاح، محمد، رؤيا التامل، مقالة في البنيات العميقة، ط1، المركز الثقافي العربي، 2005، ص8.7.
- (9) العقد الفريد، ص7.
- (10) هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناشي بالولاء، المشهور بالجاحظ؛ لجحوظ عينيه، من كبار أئمة الأدب، وُلِدَ وتُوِّفِيَ في البصرة، فُلِجَ آخر حياته، وكان مشوّه الحلقة، وله تصانيف كثيرة، منها: الحيوان، والبيان والتبيين، والبلاء، والمحسن والأضداد وغيرها، توفي سنة مائتين وخمس وخمسين هجرية. ط: الأنباري، أبو البركات، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تحقيق: إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، ط3، الأردن 1985م، ص148 والزركلي، خير الدين، الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، ط15، بيروت 2002م، 74/5.
- (11) مفتاح، محمد، التشابه والاختلاف، نحو منهجية شمولية، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1996، ص19.
- (12) مفتاح، محمد، المفاهيم معالم، نحو تأويل واقعي، ط2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2010، ص134.135.
- (13) ط: عبد السلام، هارون، البيان والتبيين مقدمة المحقق، ص6.
- (14) الزباني، عبد العاطي، التراث النقدي والتأويل طواهر وقضايا، د ط، منشورات مجلة الثقافة الجنوبية، المغرب، 2007، ص141.
- (15) ط: الجاحظ، البيان والتبيين، ط4، مكتبة الخانجي، 1975، 7/1.
- (16) بلعلج، إدريس، الرؤية البيانية عند الجاحظ، ط1، دار الثقافة، المغرب، 1984، ص43.
- (17) ط: صمود، حمادي، التفكير البلاغي عند العرب، ط3، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2010، ص268.
- (18) الجاحظ، البيان والتبيين، 121، 120/1.
- (19) المرجع السابق، ص121.
- (20) بلعلج، إدريس، الرؤية البيانية عند الجاحظ، ط1، دار الثقافات، الدار البيضاء، 1404، ص120.
- (21) المرجع السابق، 60/1.
- (22) ط: كيليطو، عبد الفتاح، الحكاية والتأويل دراسات في السرد العربي، دار توبقال، ط، الدار البيضاء، المغرب، 1988، ص53.
- (23) أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، وقيل المروزي، النحوي اللغوي صاحب كتاب " المعارف " و " أدب الكاتب "؛ كان فاضلاً ثقة، سكن بغداد وحدث بها عن إسحاق بن راهويه وأبي إسحاق وأبي حاتم السجستاني وتلك الطبقة، وروى عنه ابنه أحمد وابن دُرستويه الفارسي، وتصانيفه كلها مفيدة، منها ما تقدم ذكره، ومنها " غريب القرآن الكريم " و " غريب الحديث " و " عيون الأخبار " و " مشكل القرآن " و " مشكل الحديث " و " طبقات الشعراء " و " الأشربة " و " إصلاح الغلط " و " كتاب التنقيح " و " كتاب الخيل " و " كتاب إعراب القراءات " وفيات الأعيان، 42/3.
- (24) الطرابلسي، أمجد، نقد الشعر عند العرب حتى القرن الخامس، ط1، دار توبقال للنشر، المغرب، 1993، ص50.
- (25) الدينوري، ابن قتيبة، عيون الأخبار، دار الكتاب العربي، د ط، بيروت، د ت، 4/1.
- (26) ط: القاضي، محمد، الخبر في الأدب العربي، دراسة في السردية العربية، ط1، تونس وبيروت، كلية الآداب منوبة ودار الغرب الإسلامي، 1998، ص691.
- (27) الزين، محمد شوقي، الغسق والنسق، مقدمة في أفكار ميشال دوساروتو، التاريخ اليومي، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، 2018، ص79.

- (28) نيهاماس، ألكسندر، الحياة كنص أدبي، ترجمة: هشام محمد، د ط، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2008، ص 6.
- (29) ملخص عام من كتاب عيون الأخبار.
- (30) عيون الأخبار، ص 6.
- (31) الفقي، محمد إبراهيم، منج ابن قتيبة في عيون الأخبار، مجلة كلية اللغة بالزقازيق، ع 11، 1991، ص 51.
- (32) ط: مفتاح، محمد، التشابه والاختلاف نحو منهجية شمولية، ط 1، المركز الثقافى العربى، 1996، ص 62، 63.
- (33) عيون الأخبار ص 4.
- (34) أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالى الأزدي، المشهور بالمبرد، إمام العربية ببغداد في زمانه، وأحد أئمة الأدب والأخبار، ولد في البصرة ورفاته ببغداد، ومن تصانيفه: الكامل في اللغة والأدب، والمذكر والمؤث، والمقتضب، والتعازي والمراثي، توفي في مائتين وست وثمانين للهجرة. ط: السيرافي، أبو سعيد، أخبار النحويين البصريين، تحقيق: طه الزيني ومحمد خفاجي، منشورات مصطفى الباي الحلي، القاهرة 1966م، ص 73 والزركلي، الأعلام، 144/7.
- (35) مصطلح من مصطلحات التفكير الناقد ومهارات التفكير.
- (36) ط: المبرد، أبي العباس محمد بن يزيد، الكامل في اللغة في الأدب، دار الكتب العلمية، بيروت، 1999، 32/1.
- (37) ط: ستيوارت، فنش، الأسلوبية وتحليل النص، ترجمة المركز الثقافى للتعريب والترجمة، دار الكتاب الحديث، 2009، ص 31.
- (38) ط: الكامل في اللغة والأدب، نبذة مختصرة عن الكتاب.
- (39) يقطين، سعيد، النص المترابط ومستقبل الثقافة العربية، ط 1، المركز الثقافى العربى، الدار البيضاء وبيروت، 2008، ص 28.
- (40) ط: المرجع السابق، ص 32.
- (41) حمداوي، جميل، الكتابة الشذرية بين النظرية والتطبيق، شبكة الألوكة، ص 4.
- (42) الكامل في اللغة والأدب، ص 158.